الخيال العلمي .. تاريخ وتنظيم وعربي محتَقِر

بقلم/ ياسر أبو الحسب

منذ بزوغ فجره الأول، وحصل الخيال العلمي على مكانة مرموقة بين أقرانه من الأنواع القصصية المختلفة، واستحوذ على قلوب وعقول الكثير من الناس الذين تستهويهم النظرة المستقبلية للعلم، لما له من تأثير مقنع لاعتماده في أكثر الأحيان على نظريات علمية وحقائق منطقية، لها جذور في الواقع.

وقد اختلف النقاد والمتابعون على التاريخ الفعلي لهذا البزوغ. فبينما يعتبر الكاتبان العملاقان إسحاق عظيموف و كارل ساجان أن قصة «صومنيوم»، التي كتبها يوهانس كيبلر بين عامي (١٦٢٠ – ١٦٣٠) كأول قصة خيال علمي؛ يرى بعضهم الآخر أن رواية «من الأرض للقمر» للكاتب الفرنسي جول فيرن عام ١٨٦٥ هي البداية الفعلية لذلك النوع الجديد- نسبيا- من الأدب.. بل ذهب البعض إلى اعتبار «حي ابن يقظان» لابن طفيل، وحكايات ألف ليلة وليلة على أنهما ضربا من ضروب الخيال العلمي!

ولمّا اضطرد عدد القراء والكتاب لهذا الأدب الجديد، كان لزاما على المؤلفين ودور النشر تنظيم جهودهم للوصول لأعلى درجة من التنسيق فيما بينهم للنهوض بذلك الوليد، فنشأت الجمعيات المختصة بأدب الخيال العلمي، والتي كان بزوغها نذيرا بتطور غير عادي لذلك النوع الأدبي. وكانت بعض تلك الجمعيات تمنح جوائز للكتاب المتميزين من اعضائها.

ولعل أبرز تلك الجمعيات على المستوى العالمي؛ الجمعية البريطانية للخيال العلمي (British Science Fiction Association) والتي تأسست عام ١٩٥٨ ، والتي تعد أيضا من أقدم الجمعيات الموجودة في العالم والمهتمة بهذا المجال، ويصدر عن الجمعية ثلاث مجلات مختلفة لمراجعة الأعمال الأدبية في الخيال العلمي و تناول أخبار الجمعية وفعالياتها، وكذلك فهي تقدم جائزة سنوية لأدب الخيال العلمي تعتمد على تصويت الأعضاء في اختيار الفائز بها.

ومن الجمعيات التي لها باع طويل في هذا المضمار أيضا؛ جمعية كتاب الخيال والخيال العلمي بأمريكا (Science Fiction and Fantasy Writers of America) وتسمى اختصارا SFWA والتي تم تأسيسها عام ١٩٦٥ بواسطة الكاتب دامون نيت (من أشهر كتاب الخيال العلمي في القرن العشرين)، والجدير بالذكر أن أعضاء الجمعية يختارون سنويا أربعة فائزين في أربع مجالات للخيال العلمي، وتقدم لهم جائزة باسم (Nebula Award) أو جائزة السديم (والسديم عبارة عن سحابة تتكون غالبا من إنفجار أومخلفات النجوم)، أما المجالات التي تعطى فيها الجائزة فهي : القصة القصيرة (Short Story) ، القصة (Novelette)، الرواية (Novella) والرواية الطويلة (Novel)، ويعتمد الفارق بين الأربعة أنواع على عدد الكلمات، وتعد جائزة السديم تلك من أعرق وأرقى الجوائز التي يمكن لكاتب الخيال العلمي أن يحصل عليها، وتحصل عليها الروايات المنشورة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرغم من أن هاتين الجمعيتين تعدان الأبرز في هذا المجال، فهذا لا يمنع وجود بعض الجمعيات الأخرى والتي كان لها دورها الهام في إثراء الساحة الأدبية وزيادة نشاطها، ونذكر من تلك الجمعيات؛ مجتمع الخيال العلمي في واشنطن (The Washington Science Fiction Society) والذي تأسس عام ١٩٤٨ على يد سبعة من كتاب الخيال العلمي المرموقين.

أما إذا انتقلنا إلى عالمنا العربي، فللأسف الشديد، سنجد فقرا واضحا لمثل تلك الجمعيات، إلا ما ندر، وكذلك فالجوائز المقدمة في هذا المجال قليلة جدا، وحتى إن وجدت، فقيمتها المادية أو حتى المعنوية لا تشجع كاتب الخيال العلمي على أن يستمر بإبداعه، ورغم ذلك، توجد عدة محاولات للنهوض بالخيال العلمي هنا في الوطن العربي، ولعل ابرز تلك المحاولات ؛ رابطة كتاب الخيال العلمي التي أنشأت في العام ٢٠٠٩ وذلك بواسطة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو).

وإذا نظرنا إلى هذا الفقر الشديد في تلك الجمعيات سنجد أنه ما يجلي إلا إنعكاس واضح للتخلف العلمي والمعلوماتي الذي تعاصره الأمه العربية الان، فإذا تأملنا نشأة ذلك النوع من الأدب في أوروبا والغرب بوجه عام، سنجد أنه تلازم مع الثورة الصناعية الكبرى وما تلاها من إنجازات علمية وخطوات تقنية عملاقة ساعدت

المؤلف الغربي في الابتكار والخروج من قيد الجمود العلمي الذي نشعره جميعا هنا في وطننا العربي. ولكن، ومع كل ذلك، فالإتصال بالحضارات المتقدمة قد ييسر لنا قدرا من التفتح ومواكبة العالم من حولنا مما أعطى بعض الكتاب حديثا فرصة لمحاولة مجاراة العالم في مجال كتابة روايات وقصص الخيال العلمي.

ولم يكن القارئ ذاته بعيدا عن التأثر بالأجواء المحيطة في تقبله أو عدم تقبله لروايات الخيال العلمي. فكما أثر التخلف التقني والمعلوماتي على توجه الكتّاب العرب، نجد تأثيره جليا على اختيارات القارئ العربي، فتجد أن رواية الخيال العلمي تقع في مؤخرة قائمة اهتمامات القارئ العربي. ليس هذا فحسب، بل ستجد الاحتقار الواضح والنفور البين من هذا النوع الأدبي. فالقارئ العربي لا يستطيع أن يتخيل مثلا أن شخصا اسمه «طارق» يقوم بمغامرات فضائية في سفينته التي صنعها مهندسو «مصر» وأطلقتها «وكالة الفضاء المصرية»!

فهل يبدأ الخيال العلمي من تلقاء نفسه مسيرة التقدم التكنولوجي العربي، ويأخذ بيد الأمه إلى مكانتها الطبيعية، وليس العكس كما حدث في اوروبا؟ أم سنظل كما نحن مدفونين في بقايا الماضي، ونستعمل تراثنا الحضاري -كعادتنا- كمخدر يشبع رغبتنا في التفاخر، ويعمي أعيننا عن ما يدور في العالم من حولنا؟

سؤال ستتكفل السنوات القادمة بالإجابة عليه .. وأحسب أنها لن تكون طويلة!